هل شارف القول الذّكوري على النّهاية؟

(أفكار للنّقاش)

كنت أوّد أن أبدأ كما بدأ "فوكو" في محاضرته الأولى في الجامعة، حيث قال ما معناه: كنت أفضّل أن أكون مغلّفاً بالكلام بدل أن آخذ الكلام، كنت أود لو أن صوتاً قد سبقني منذ زمن بعيد، لكان علي، فقط، أن أتابع أن أسكن خلسة بين ثنايا الكلام، كما لو أنّه أشار إلي في لحظة انقطاع أو توقّف.

قال "فوكو" ذلك وهو يعلم أن أصواتاً سبقته، وما كان عليه إلاّ متابعة القول حتى ولو نقضه أو فكّكه أو رفضه. كان هناك لغةٌ، قولٌ، يشكّل فضاءً واسعاً، يدخله القائل الجديد من دون تعثّر، لأنّ نسيج هذا الفضاء لا يتنافى مع نسيجه الخاص كذكر في مجتمع ذكوري يحكمه القول الذكوري.

كان "فوكو" إذاً يتمنّى أن لا يبدأ القول، وأنا مثله، أتمنّى ذلك، لكن تمنّيه كاذبٌ وتمنيي صادقٌ بسبب واقع الحال، لأنّ القول الذي يقولني مفقودٌ وعلينا تأسيسه قبل رفع مداميكه، ولهذا السّبب أبدأ بالأساس.

أعتبر أنّ أوّل آلة يمتلكها الإنسان هي جسده الذي به يتحرّك ويتغذّى ويتكاثر... ويفكّر وبالتالي يقول، يعني أنّ قوله هو امتدادٌ لجسده، والامتداد ليس بالضرورة التّكرار التشابهي والمثلي، ولكنّه أيضاً التّخطّي والرّفض والتّصعيد وما إلى ذلك من أواليات. ولكي نتمكّن من الانطلاق من الآلة الأولى التي هي الجسد، علينا أن نمتلك هذا الجسد، والامتلاك يعني حريّة التّصرّف، وحريّة التصرّف هذه تتحرّك في حيزين، حيّز مغلق أي علاقة الإنسان بجسده كفرد منعزل وهي علاقة عقيمة لا تنتج قولاً، وحيّز منفتح، أي علاقة الإنسان، ومن خلال علاقته بجسده، مع الإنسان الآخر، أيضاً من خلال علاقته بجسده، وهنا يظهر مدى امتلاك كل فرد لجسده.

هنا نرى أنّ الرّجل يملك جسده لأنّه يمتلك القرار في التقائه بالجسد الآخر، جسد المرأة، بينما هي لا تملك هذ ا القرار إلاّ خلسةً أو تحدّياً، وبخاصّة في المجتمعات الشّرقية. وهنا يحضرني "كنط" الذي ميّز بين ما يسمّيه الشيء في ذاته "La chose en soi" والظاهرة أو "Le phénomène"؛ فإذا اعتبرنا أنّ الإنسان هو الشيءُ ذاته، يبقى أنّنا لا نستطيع معرفته إلاّ من خلال الفينومان العيني. والعيني يظهر لنا الاختلاف في امتلاك كل من المرأة والرّجل لجسديهما. وحضرني "كنط" لسبب مهم وهو أنّ ما توهمنا به الأديان من أنّ الإنسان هو جوهرٌ واحد من دون تميّز بين كونه ذكراً أو أنثى هو قول من دون مفاعيل

واقعية، وهنا لن أطيل الكلام لأن واقع الحال المستند إلى القول الديني خير دليل على التّمايز التفاوتي بين الرّجل والمرأة.

لكن مفهوم الملكية هو مفهوم جشع، إذ إن منطق الرأسمال هو التّراكم. والرّجل الذي يمتلك جسده الذي هو رأسماله، أراد ويريد أن يمتلك أيضاً كلّ امتداداته التي هي الأبناء. والامتلاك هنا يصبح بالنّسب، يعني بانتساب الأولاد إلى الأب، بينما لا يحق للمرأة، وبسبب عدم امتلاكها لجسدها أن تمتلك إمتدادات هذا الجسد، يعني لا يحق لها أن تنسب الأولاد إليها ويعني أيضاً أنّ الرّجل هو كائن لذاته بينما المرأة هي كائن لغيره. من هنا يأتي قول الرّجل قولاً ممتلئاً بينما يأتي قول المرأة قولاً فارغاً، بمعنى أنّه الصّدى للقول الفعلي، وتمثيلٌ على خط مرسوم سلفاً.

كيف تتمّ عمليّة امتلاك الرّجل لأبنائه؟ إنّ أبوّة الرّجل للأبناء تحتاج إلى إثبات، بينما أمومة الأم لأولادها هي واقع بديهي. والإثبات هو محاججة قائمة على البرهان، عل فعل القول، والقول لا يكون فاعلاً إلاّ إذا تمأسّس، ولهذا السّبب أنشأت مؤسّسة الزّواج، وبما أنّ الزّواج لا يقدّم البرهان القاطع على صحة انتساب الأبناء إلى الأب، دُعِّمَ بالتّسجيل في دوائر النّفوس التي تحرّرُ صك الملكيّة، يعني أنّ الرّجل يريد أن يرى ويسمع الجميع أنّ المولود في مؤسّسة الزّواج هو فعلاً ابنه، بينما المرأة لا تهتم لكل هذه الإثباتات، إنّها تعيش المحايثة في كلّ أبعادها وتكتفي بشم طفلها وضمّه وتترك الرّجل يسعى جاهداً لبناء المؤسّسات الثّبوتيّة. من هنا يمكننا القول، ربّما، إنّ قول المرأة هو قول المحايثة وقولُ الرّجل هو قول التّجريد والتّصعيد (القول الفلسفي كلّه، من أفلاطون إلى ديكارت إلى كنط وهيغل وغيرهم، يشهد على ذلك).

ولهذا الواقع الطّبيعي تاريخ، إذا عدنا إليه نرى أنّه حتّى الآن مرّ بمرحلتين؛ الأولى تمتدّ من بداية الألفيّة الثالثة عشر قبل الميلاد حتى الألفيّة السّادسة أو الخامسة قبل الميلاد. والثانية تمتد من الألفية السّادسة أو الخامسة قبل الميلاد حتى عصرنا الحالي. ميزة المرحلة الأولى كانت الالتصاق بالطّبيعة مع الخوف من غموضها، والدّراسات والتّقنيّات تظهر لنا أنّ الإنسان في تلك المرحلة كان يقدّس المرأة (الاكتشافات الأثرية للتماثيل تدلّ على ذلك). وقول تلك المرحلة هو قول المحايثة، القول المبني على حدس المكان. أمّا ميزة المرحلة الثانية التي بدأت مع الميتولوجيا اليونانيّة فهي التّركيز على الحركة، أي على حدس الزمان المتمثل بهرمس المتحرّك والجوال، بينما الإلهات كديميتار وهستيا وغيرهما كانت تمثّل المكان، إمّا البيت أو الأرض المحروثة أو الأرض البور... وهذا ما يعبّر عنه "بارت" حين يقول، المرأة مقيمةٌ والرّجل رحالةٌ أو

جوال وهذا القول يعني أنّ المرأة تمثّل المكان و الرّجل يمثّل الزّمان. وفي التّركيز على حدس الزّمان، وجد الرّجل قوله الخاص وبدأت مرحلة القول الذّكوري التي لا زالت هي المسيطرة.

وإذا عدنا إلى الجسد الذي هو الآلة الأساسية عند الإنسان نرى أنّ القول الذكوري في حدسه الأحادي للزّمان قد ركز على حاستَين من حواس بدنه هما السّمع والبصر وهذا ما يدلّ عليه الوضع الراهن حيث أنّ السّمعي_البصري (L audio-visuel) هو المسيطر. وإذا استعرضنا تاريخيّاً هذه الحضارة الذّكورية، نرى أنّها انبنت كلّها على الحروب والصراعات وفرض سيطرة الأقوى ابتداءً من القوة الجسديّة وصولاً إلى قوة المال حيث أصبحنا نساوي ما نملك. وعلى صعيد التّطوّر العلمي والتّقني، أوصلتنا هذه الحضارة الأحادية الحدس إلى تناقض رهيب وهو قمة الاتّصال وقمة العزلة (العلاقة بالإنترنت والكمبيوتر والتلفيزيون...)، لقد أصبحنا أفراداً تتحكّم بنا الآلة وتعزلنا عما يحيط بنا. والسّؤال الذي يفرض نفسه هنا هو: إلى أين؟ هل القول الذي بناه الرّجل قد وصل إلى النّهاية؟ يبدو ذلك لأنّ القول الذي بدأ لإثبات الذات وامتلاك الذات انتهى إلى قول ما أملك أي تحديد الذات بما يملك حيث تحوّل الإنسان اليوم، وبحسب تقسيم غبريل مارسيل، إلى avoir وليس إلى être، يعني أنّ القول الرّجولي الذي كان قول الحرب وقول الحدس الواحد والذي توصل إلى سيطرة حاستين فقط من حواس الإنسان، السّمع والبصر، قد أفرغ من مضمونه الذي هو توكيد الذات، والعزلة التي رمى فيها الفرد اليوم هي تماماً نقيضُ فعل القول الذي هو الاتّصال وليس الانفصال. وبكلام آخر إنّ القول الرّجولي قد ألغى المكان وهو لا يدري أن إلغاء المكان هو في الوقت ذاته تفتيتٌ للزمان لأنّ المكان هو عامل الوصل؛ المكان يوحّد والزّمان يفصل. (كرونس عند اليونان هو الإله الذي يبتلع أولاده).

هل هذه النّهاية للقول الذكوري هي نهاية القول الإنساني؟ لا، لأنّه كان قول فريق واحد من الثنائي الإنساني. هناك صمتٌ أوصل القول الذّكوري إلى ما هو عليه وعلى هذا الصّمت أن يتحوّل إلى قول كي تتم عمليّة الإنقاذ وبناء حضارة جديدة، حضارة السّلام والحب، والمرأة هي المؤهّلة، من حيث اختلافها عن الرّجل، لبناء هذه الحضارة. عليها أن تحوّل حدس المكان إلى قول أو أن تبلور القول القائم على حدس المكان. (مقارنة مع علم حركة الكوزموس) كيف؟

إذا عدنا إلى البداية نرى أن على المرأة، إن كانت تريد أن يكون لقولها فاعليةٌ، أن تمتلك جسدها وأن تخلصه من الارتهان إلى الأهل والأخ والزّوج والمجتمع، وعليها أن تمتلك إمتدادات جسدها، أي الأولاد. عليها أن تثبت قول اليقين لأن لا شك في أمومتها وأن تلغي القول الافتراضي الذي يؤدّيه الرجل

لتغطية عجزه عن إمكانية الامتلاك العيني، يعني عليها أن تجابه برهانية التّصعيد والتّجريد، ببداهة المحايثة.

وهنا لا بدّ من ملاحظة حول قول المرأة والمعبر عنه في مطالبات الحركات النّسائيّة. قول المرأة هنا أتى كردة فعل على القول الذكوري وعلى الحقوق التي متع نفسه بها. ولكنّه أتى على أرضية القول الذّكوري متبنيّاً اللّغة (بمعنى اللّوغس) القائمة على الحدس الأحادي الذي هو حدس الزمان كما رأينا. وبما أنّ المرأة لم تجد قولها بعد وبالتالي لم تواجه به، أتت كل مطالباتها أن تتحول إلى ذكر ولكن إلى ذكر لا يملك قوله الخاص، يعني إلى ذكر مخصي، ولهذا السبب فشلت وستستمر بالفشل لأنّها ستظلّل تحت سيطرة القول الذّكوري الذي شارف على النّهاية، إن لم تجد البديل الذي هو قولها الخاص.

قول المرأة هو القول القائم على حدس المكان وعلى إعادة تنشيط الحاستين اللّتين همشّتا في القول الذّكوري وهما حاسة الشمّ وحاسة اللّمس، فهما ركائز القول الذي يؤالف ولا يفرق. المكان يجمع والزمان يبعثر، يفرق. السّمع والبصر هما حاستا الالتقاط عن بعد بينما الشمّ واللّمس هما حاستا الالتقاط عن قرب. السّمع والبصر هما من ركائز قول الحرب، الشمّ واللّمس هما ركائز قول السّلام والحب.

على الصّعيد العملي المطلبي، على المرأة أن تحصر كل مطالبها بمطلب واحد هو امتلاكُها لجسدها وما ينتج عنه وهو ضرورة وإلزامية انتساب الأبناء إلى الأم أي إلى اليقين، فينهار القمع المؤسسّاتي ولا يخرج إلى المجتمع أولاد زنى وأولادٌ غير مرغوب بهم بل أولادٌ من دون عقد، هذه العقد التي هي وراء كل الحروب والتناحر.

هذا على الصّعيد المطلبي، ولكن المطلوب لا يتحقّق إن لم تخرج المرأة من عالم القول الذّكوري لتؤسّس قولها الخاص. وقولُها الخاص هو القول المبني على حدس المكان، يعني هو قول المحايثة، الذي يرتكز على حاستي الشمّ واللّمس، حاستي الوصل والحب. وخير دليل على صحّة هذا القول هو ما نلاحظه في علاقة الحب وفي فعل الحب بين المرأة والرّجل حيث أنّهما يغمضان أعينهما ويصمان آذانهما ليتمتعا بلذة الشمّ و اللّمس ويصلان إلى النّشوة التي تعيد إلى البدن والفكر معاً توازنهما فيبتعدا عن العنف وكل نتائجه.

إن استطاعت المرأة أن تجد قولها المتميّز، عاد القول الإنساني إلى عافيته واستطاع أن يبني حضارة السّلام والتوّصّل إلى المعرفة الحقيقيّة، إذ إنّ الحدسين الأساسين والوحيدَين عند الإنسان وبحسب

كنط، هما حدس الزمان وحدس المكان، فمن دونهما لا معرفة وبالتالي لا قول، وبواحد منهما يأتي القول أعرجا ويؤدّي، كما القول الذكوري الحالي إلى إلغاء ذاته.

فعلى أرضية حدس المكان فليخرج الشمّ واللّمس من هامشيتهما ليشكّلا مع البصر والسّمع مربّع القول الإنساني الشّامل. (نظرة هيغل والتوليف، انطلاقاً من المرحلتين السّابقتين للقول).

(نلحظ بدايات لهذا القول في الرّواية الحديثة أو ما يسمّى ب (Le nouveau roman) حيث يركز على المكان...)